المحاضرة رقم14

العنوان: بوابة الذكريات آسيا جبار، ذاكرة الجسد أحلام مستغانمي.

مقدمة:

لقد شكلت المرأة الجزائرية حضورا مميزا في الساحة الأدبية، حيث لم تكتف بأن تكون موضوعا للكتابة، بل تحولت إلى فاعلة في إنتاج الخطاب الروائي الذي يعبرعن الذات الفردية والجماعية على حدّ سواء، ومع كاتبتين بارزتين مثل: آسيا جباروأحلام مستغانمي أصبحت الرواية فضاء تنبثق منه أصوات النساء لتعيد صياغة الذاكرة الوطنية وتكشف عن جراحات الوطن، ففي بوابة الذكريات تسعى جبارإلى إعادة الاعتبارلصوت المرأة المنسي في تاريخ الاستعمار، بينما تجعل مستغانمي في ذاكرة الجسد من الحب والفقد نافذة لطرح أسئلة الوطن بعد الاستقلال، وهكذا تلتقي الكاتبتان في جعل الإبداع النسوي سيلة للتعبيرعن القضايا الوطنية الكبرى، مع إبراز معاناة المرأة وصمودها في مواجهة التهميش السياسي والاجتماعي.

1/ التعريف بالروائيتين:

* آسيا جبار: (1936م- 2015م) فاطمة الزهراء إملحاين، من مواليد 1936م ، بدأت تعليمها الابتدائي في مدينة موازية، وواصلت تعليمها في البليدة ثم الجزائر العاصمة، وبتشجيع من والدها واصلت دراستها في فرنسا، وانتسبت إلى دار المعلمين في باريس عام 1955م، وشاركت في إضرابات الطلبة الجزائريين المساندين للثورة.

ولقيت شهرة واسعة كـ: كاتبة وروائية اهتمت بتاريخ المرأة الجزائرية وصوتها المخنوق، وكما استثمرت السرد الذاتي والتاريخي لتعرية الاستعمارو آثاره على الذاكرة الفردية والجماعية.

تركت العشرات من الأعمال الأدبية في الرواية والقصة والشعروالإخراج السينمائي، إلى جانب الدراسات التاريخية، بدءا بروايتها الأولى العطش (1957م)، إلى آخررواية لها لا مكان في بيت أبي (2007)، وقد ترجمت الكثيرمن أعمالها إلى عديد من اللغات.

وثاني عمل لها – نافذة الصبر- (1958)،

نساء الجزائر، ظل السلطانة، الحب والفانتازيا ، وبعيدا عن المدينة

وكانت اللغة الفرنسية أداة البوح لها حيث تقول: " هذه اللغة أصبحت أرضي الوحيدة، حتّى وإن خيّمت على هوامشها، وكأنني رحلت عارية من موطني، لقد مثلت معطفي الوحيد" وقد كان الفضل لوالدها في اكتسابها حين اختارلها ومنذ الصبا مزاولة تعليمها في المدرسة الفرنسية، لذا مثّلت بالنسبة لها لغة الأب، وفي المقابل ثمة لغة أخرى انزوت إلى الظل هي لغة الأم المنهزمة الحاملة للثقافة في بعدها الشفوي والتي تنفتح على فضاءات الحريم والذاكرة النسوية، حيث تقول في رواية – الحب والفانتازيا " الفرنسية هي لسان زوجة الأب، ما هو اللسان الأم الضائع منذ زمن بعيد، والذي تخلى عنّي واختفى؟، تثقلني المحرّمات الموروثة واكتشف أنني لا أملك ذاكرة من أغاني الحب العربية".

* أحلام مستغانمي: من مواليد 1953م روائية جزائرية مزجت بين الحب والسياسة والذاكرة، ولقد استطاعت أن تجعل النص الروائي فضاء يجمع بين العاطفة والتاريخ، وبين السرد الشعري والبوح الذاتي، ومن أشهرأعمالها : على مرفأ الأيام (ديوان شعري)، الكتابة في لحظة عري(ديوان شعري)، ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير، نسيان، قلوبهم معنا وقنابلهم علينا، الأسود يليق بك، عليك اللهفة ،شهيا كفراق ، أصبحت أنت .

2/ ملخص عن الروايتين:

- بوابة الذكريات: عمل سيري توثيقي أقرب إلى اليرة الذاتية، فيه استرجاع لطفولة الكاتبة وتجربتها التعليمية في الجزائرزمن الاستعمار.

تحضر فيه الذاكرة الفردية (ذكريات الطفولة، المدرسة، العائلة) متقاطعة مع الذاكرة الجماعية (معاناة الشعب الجزائري، وضع المرأة.

برزت صبية للوجود عمرها سنتان ونصف السنة أوربكما ثلاث سنوات، ترى الطفولة نفق من الأحلام لامه هناك على خشبة مسرح حيث يُعاد العرض، ولكن لك وحدك أنت يا صاحبة العين الجاحظة؟ هذه طفولتك تمتد لأي صفيّة وكاتمة أسرارولأي ابنة عمّ عابرة تكون قد رأت دموعك تنهمر في خضم الشارع فيما مضى، أو نحيب لا يزال يمزقك؟

ثمة رسوخ باق: أمي التي لاتزال حيّة ترزق بفضل ربي، بإمكانها أن تشهد على ذلك، تسع عشرة سنة فقط تفصلني عنها، عندما كنت أتعلم السير، كانت تدرك بأنها في مدينة شرشال حيث الطقوس الأندلسية تؤدي دونما تغير، وكانت تمتع بمنزلة – العروس الفتية – الممتازة المتبخترة في أفراح النساء، حاملة جواهر ثمينة، قد ضاعت اليوم – مثل تلك العصافيروالورود الذهبية المنتصبة على رأسيتها المصنوعة من الشاتان المتموج، المتأرجحة ببطء مكلّلة جبهتها، هي المعبودة الباسمة ذات العيون المخضبة واللآلئ الفضية التي تبرزوجنتيها.

وتؤكد على ذكريا الطفولة كذلك في قولها: " ها هي ذكرى طفلة عمرها خمس أوستة سنوات تطالع كتابها الأول تلوح أمام ناظري: لقد وصلت مسرعة كالريح إلى هذه الشقة وفي يدها رواية استعارتها من المكتبة الرسمية" .

وتواصل هذا الاستحضار" فجأة لامستني ذكرى من ذكريات طفولتي الأولى، عندما كنت صغيرة، جدا (في حوالي سن خمس أوستة سنوات فيما أظن)...أقمت بعض الأيام في الحي المسمى (لمارين) وكان يشبه أطلالا..... وكان خال والداتي يقطن هناك"

وكما تذكر ذكريات طفولتها أين كانت تخرج للتنزه "كنت أخرج كل آخر الساعة من ساعات الدراسة، حاملة توليفاتي الموسيقية وأعبر الرواق الهائل الغارق في الظلمة وأخذ نفسي قبالة قاعة الحفلات وحيدة هناك في الطرف الآخر، أعزف على البيانو خلال ساعة"

وصفوة القول أن جبار تكتب لتعيد الاعتبار لصوت الانثى المهمّش عبر التاريخ، وتفتح بوابة تطل منها على زمن الاستعمار وما خلّفه من ندوب في الذاكرة والوجدان.

- **ذاكرة الجسد:** عمل أدبي مميز نال جائزة نجيب محفوظ عام 1998م، صدرت في سنة 1993م في بيروت، بلغت طبعاتها حتى فبراير 2004 (19طبعة)، ولقد شكلت رواية ذاكرة الجسد نقلة نوعية في الرواية الجزائرية جمعت بين الحس التاريخي والتخييل الذاتي، مسلطة الضوء على معاناة جيل الثورة وما بعد الاستقلال، ولقد حظيت هذه الرواية باهتمام كبير من طرف النقاد والدارسين ومن الذين نوهوا بهذا العمل نزار قباني:" روايتها دوختني، و أنا نادرا ما أدوخ أمام رواية من الروايات، وسبب الدوخة أن النص الذي قرأته يشبهني إلى درجة التطابق" حيث أحدثت الرواية ثورة في الخطاب الروائي العربي من حيث اللغة والأسلوب والمواضيع، وهي تروي قصة رسام فقد ذراعه أثناء حرب التحرير ويقع في حب حياة ابنة أحد رفاقه الشهداء، الرواية ليست مجرد قصة حب شخصية، بل تعكس علاقة معقدة بين الفرد والوطن، وبين الحب والخذلان، وبين الذاكرة والنسيان من موضوعاتها الأساسية:

* أثر الاستعمار الفرنسي على الجزائر.
* خيبات جيل الثورة بعد الاستقلال.
* العلاقة بين الفن(الرسم / الكتابة) والذاكرة.
*الحنين، الفقد، والمنفى

ولقد اعتبرت فتحا جديدا في السرد النسوي العربي بسبب لغتها الشعرية الكثيفة.

ومن خصائص الرواية ما يلي:

الاسترجاع السردي للتاريخ الجزائري: لقد استعانت الروائية بالاسترجاع السردي للتاريخ الجزائري بطريقة تمزج بين الذاتي والوطني، حيث تعيد بناء الأحداث التاريخية من خلال منظور شخصي وعاطفي، فالرواية لا تقدم التاريخ بوصفه سردا تقريريا بل تعيد تشكيله عبر الذاكرة الفردية للبطل خالد بن طوبال وهو مجاهد سابق فقد ذراعه في الحرب ليصبح شاهدا على تحولات الجزائر بعد الاستقلال، وكان هذا الاسترجاع عبر أحداث حقيقية تمثلت في:

* **أحداث 08ماي 1945:** فلقد استحضرت الروائية هذه المجازر التي كانت نقطة انطلاق للوعي الثوري - ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة- فبعد خروج الجزائريين في مظاهرات سلمية فرحا واستبشارا بنهاية الحرب العالمية الثانية وعلى آمل استقلال الجزائر كما كانت فرنسا قد وعدت الجزائريين قبيل الحرب وكانت المكافأة مجزرة راح

ضحيتها عدد كبير، ومن خلال البطل تم سرد التحضير لهذا اليوم " ففي ذلك المحل الذي لا أثر له اليوم كان يلتقي القادة السياسيون ويعطي مصالي الحاج تعليماته الأخيرة وفيه نوقشت الشعارات التي رفعها المتظاهرون وكتبت ليلا على اللافتات لتكون مفاجأة لفرنسا، وعندما انطلقت تلك المظاهرة فوق جسر سيدي راشد كما خطط لها بلال لأسباب تكتيكية يسهل معها تجمع المتظاهرين ثم تبعثرهم من كل الطرق المؤدية للجسر أدهشت القوات الفرنسية بدقتها ونظامها الغير المتوقع وكان بلال أول من ألقي عليه القبض وعذب للعبرة"

*الثورة التحريرية1954م -ذكرى الرصاصة الأولى -" غدا سيكون أول نوفمبر ستكون قد مرت أربع وثلاثون سنة على انطلاق الرصاصة الأولى لحرب التحرير" فهذا تذكير للجزائريين بأن الاستعمار لم يكن مجرد احتلال عسكري بل كان نظاما قمعيا حاول طمس الثقافة الجزائرية وفرض ثقافته مما دفع بالجزائريين إلى الانتفاضة.

وكما استحضر السارد تجربته الشخصية " ذات يوم أكثر من ثلاثين سنة سلكت هذه الطرق واخترت أن تكون الجبال بيتي ومدرستي السرية التي أتعلم فيها المادة الوحيدة الممنوعة من التدريس وكنت أدري أنه ليس من بين خريجيها من دفعة ثالثة وأن قدري سيكون مختصرا بين المساحة الفاصلة بين الحرية والموت"

*الشخصيات ثورية حقيقية: مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، ديدوش مراد " سنة 1955 أي عشر سنوات بالضبط بعد أحداث 8 ماي 1945م عاد هذا السجن للصدارة بدفعة جديدة لسجناء استثنائيين كانت فرنسا تعد لهم عقابا استثنائيا في الزنزانة رقم 08 ..المعدة لانتظار الموت كان ثلاثون من قادة الثورة ورجالها الأوائل ينتظرون موثقين تنفيذ الحكم بالإعدام عليهم من بينهم مصطفى بن بولعيد، والطاهر الزبيري ومحمد لا يفا و إبراهيم الطيب رفيق ديدوش مراد وباجي مختار وآخرون".

وكما ذكرت الممارسات الاستعمارية ومحاولة عزل الشعب الجزائري ومنع الدعم الخارجي عن الثورة " فلم تكن قضية عبور الحدود بحراستها المشددة ودورياتها وكمائنها لتخيفه، ولا حتى اجتياز خط موريس المكهرب والمفروش بالألغام، والممتد بين الحدود التونسية الجزائرية من البحر إلى الصحراء والذي اجتازه فيما بعد ثلاث مرات وهو رقم قياسي بالنسبة لعشرات المجاهدين الذين تركوا جثثهم على امتداده"

ولقد احتلت قسنطينة الحيز الأكبر في الحضور المكاني وفي اللوحات التي كان يرسمها خالد بن طوبال ببيوتها وجسورها وكذلك أحيائها " وتزحف نحوي قسنطينة ملتحفة ملاءتها القديمة، وكل تلك الأدغال والحروف والممرات السرية التي كنت يوما أعرفها والتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان، فتوصلك مسالكها المتشعبة، وغاباتها الكثيفة إلى القواعد السرية للمجاهدين، وكأنها تشرح لك شجرة بعد شجرة، ومغارة بعد أخرى، إن كل الطرق في هذه المدينة العربية العريقة تؤدي إلى الصمود، وإن كل الغابات والصخور هنا قد سبقتك في الانخراط في صفوف الثورة، هنالك مدن لا تختار قدرها ....فقد حكم عليها التاريخ كما حكمت عليها الجغرافيا ألا تستسلم .."

وكما عادت السارد لاستدعاء التاريخ وإعادة تأويله وكان هذا الاستدعاء من خلال الإشارة إلى قسنطينة وأسمائها القديمة "تحمل اسمين مثلك وعدة تواريخ للميلاد كان اسمها يوما سيرتا ....قاهرة كانت كمدينة أنثى وكانوا رجالا في غرور العسكر ...من هنا مر صيفاكس ...ماسينسا....يوغرطة ...وقبلهم أخرون ....تركوا في كهوفها ذاكرتهم ...نقشوا حبهم وخوفهم وآلهتهم، كانت سيرتا مدينة نذرت للحب والحروب تمارس إغراء التاريخ وتتربص بكل فاتح سبق وأن ابتسمت له يوما من علو صخرتها...كنائسها كانت تغري بالفتوحات الوهمية، ولكن لم يعتبر من مقابرها أحدا هنا أضرحة الرومان ...والوندال ...والبزنطيين والفاطميين والحفصيين والعثمانيين ....واحد وأربعين بابا تناوبوا عليها قبل أن تسقط في يد الفرنسيين...هنا وقفت جيوش فرنسا سبع سنوات بأكملها على أبواب قسنطينة ...فرنسا التي دخلت الجزائر سنة 1830 لم تفتح هذه المدينة الجالسة على الصخرة إلا سنة 1837م سالكة ممرا جبليا تركت فيه نصف جيشها وتركت فيها قسنطينة خيرة رجالها" فتشييد قسنطينة سبق الاستعمار الفرنسي بقرون عدة.

ذكر السارد للقائه بكاتب ياسين حيث" كنا أنداك أنا وهو أصغر معتقلين سياسيين، وربما كان ياسين يصغرني ببضعة أشهر، كان عمره ستة عشر عاما فقط ...ورغم أنهم أطلقوا سراحي لصغر سني فقد رفضوا أن يطلقوا سراح ياسين ونفي في سجن الكدية أربعة عشر شهرا كان يحلم بالحرية وبامرأة تكبره بعشر سنوات اسمها نجمة وبينما عدت أنا بعد ستة أشهر من السجن إلى الدراسة راح ياسين يكتب بعد عدة سنوات رائعته نجمة ...تلك الرواية الفجيعة التي ولدت فكرتها الأولى هنا في ذلك الليل الطويل وفي مخاض المرارة والخيبة والآلام الوطنية الكبرى أذكر أن كاتب ياسين كان مدهشا دائما كان مسكونا بالرفض وبرغبة في التحريض والمواجهة، ولذا كان ينقل

عداوة من سجين إلى أخر وكنا نستمع إليه ونجهل وقتها أننا أمام لوركا الجزائر و أننا نشهد ميلاد شاعر سيكون أكبر ما أنجب هذا الوطن من مواهب"

* تفكيك الوهم الوطني بعد الاستقلال: المرأة = الوطن تجسيد للفقد والانكسار: ففي ذاكرة الجسد تلعب المرأة دورا عميقا حيث يتم تمثيلها كوطن، مما يعكس علاقة معقدة بين الهوية، الوطن، الاستعمار فتارة يجعله يحل محل أمه" هذا هو الوطن الذي استبدلته بأمي يوما، كنت أعتقد أنه وحده قادر على شفائي من عقدة الطفولة، من يتمي ومن ذلي ...اليوم بعد كل هذا العمر بعد أكثر من صدمة ومن جرح، أدري أن هناك يتم الأوطان أيضا هنالك جبروتها و أنانيتها ....هنالك أوطان لا أمومة لها ...أوطان شبيهة بالآباء"

وكثرا ما يتكرر الارتباط بين المرأة والوطن في الرواية حيث أن خالد يقول : " كنت كعالم فيزيائي يريد أن يجمع بين صيغتين متفجرتين في الوقت نفسه... أنت وقسنطينة... صيغتين صنعتهما نفسي في نوبة شوق وعشق وجنون قست قدرتهما التدميرية كلا على انفراد وأردت أن أجربهما معا كما تجرب قنبلة ذرية في صحراء "فما انفجار هنا إلا استعارة للخذلان فالتجربة التي يخوضها مقدر لها هذا تماما كما انفجر حلم الاستقلال بعد أن تحول إلى خيبات، وهذا ما يوحي بأن العشق العنيف للوطن أو المرأة قد يقود إلى الدمار النفسي إذا لم يتحقق كما ينبغي.

فقد نال خالد إحباط عاطفي وسياسي ما جعله يعقد علاقة مباشرة بين أنثاه حياة وبين الوطن فيقول: "أنت كهذا الوطن تحترفين تزوير الأوراق وتزييفها" فهذا التشبيه ليس من قبيل الاستعارة بل إسقاط على الجزائر بعد الاستقلال ففكرة تزوير الأوراق وتزييفها قد يشير إلى:

- ❖ الوعود الكاذبة بعد الاستقلال حيث حلم الحرية تحول إلى خيبة سياسية.
- ❖ تشويه التاريخ: محاولة إعادة كتابة التاريخ وفق ما يتماشى مع بعض المصالح الشخصية.
- ❖ الإقصاء والتهميش: وهو ما يشعر به خالد كمجاهد سابق فقد ذراعه في الحرب لكن أقصي من المشهد الجديد.

3/ مقارنة بين العملين:

* الذاكرة : وهي المحور الأساسي في كلا العملين في بوابة الذكريات ذاكرة جماعية / تاريخية وذاتية، في ذاكرة الجسد وجدانية وطنية.

* حضور الوطن: في عمل جبار الوطن كجرح استعماري، يثقل ذاكرة المرأة، وفي ذاكر الجسد الوطن كجسد مفقود.

اللغة والأسلوب: أسلوب جبارتوثيقي/ تأملي يميل إلى السيرة الذاتية والتاريخ، ومستغانمي أسلوب شعري غنائي يمزج بين السرد الروائي والقصيدة.

قضية المرأة: كل من آسيا جباروأحلام مستغانمي جعلتا الذاكرة أداة إبداعية لإعادة كتابة الذات والتاريخ الجزائري، الفرق أن جبارتنطلق من التأريخ والذاكرة الجماعية، في حين مستغانمي تنطلق من الحب والذاكرة الفردية.

خاتمة: كل من آسيا جباروأحلام مستغانمي جعلتا الذاكرة أداة إبداعية لإعادة كتابة الذات والتاريخ الجزائري، الفرق أن جبارتنطلق من التأريخ والذاكرة الجماعية بينما مستغانمي تنطلق من الحب والذاكرة الفردية، النص يكملان بعضهما البعض فالأول يفتح بوابة على الماضي الاستعماري، والثاني يعكس أزمات ما بعد الاستقلال.

مراجع المحاضرة:

شهرة بلغول: آسيا جبارمن أقاليم اللغة إلى أقانيم الهوية، مجلة رؤى فكرية، العدد 4، 2016.
آسيا جبار: بوابة الذكريات، ترجمة: محمد يحياتن.
-أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط15، 2000م.